مقاربة سيميائية لقصيدة ثورية لأحمد كرومي *

د.بن دحان الطيب/ جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر

ملخص :

تقوم هذه الدراسة بتحليل قصيدة ثورية لصاحبها أحمد كرومي عالج فيها مرحلة تاريخية للجزائر بدءا من مجزرة 08 ماي 1945 و صولا إلى مرحلة اندلاع الثورة المظفرة ،نوفمبر 1954 ، وبين التاريخيين ذوى نشيج و نشيد . أسقطنا المنهج السيميائي على قصيدة شعبية قصد الوصول إلى جمالية اللغة الفنية التي في طياتها التناقض و التضاد ،من قوة إلى ضعف ،ومن نصر إلى هزيمة تكبلها العدو.

Abstract:

The following study analyzes a revolutionary poem written by Ahmed Kerroumi, dealing with a historical period in Algeria. It began with the massacre of May 8, 1945 to the triumphant revolution of November 1954. We use the semiotic approach to study this poem in order to reach the aesthetic of the artistic language, which has contradiction and contrast, from strength to weakness, and from victory to defeat the restraint of the enemy.

تمهيد

يفتح الشاعر قصيدته بتاريخ يعد نقطة انطلاق لمرحلة اساسية عاشتها الجزائر ، تشكل نقطة صراع يؤسس لجيش العدو تنفيده قصد تصفية المتمردين "الفلاقة "حسب لغة العدو ، لكنه يفشل في تحقيق أدائه ، من هنا تبنى القصيدة على الصراع بين الطرفين المستعمر بكسر الميم و المستعمر بفتح الميم ،في هذه القراءة نحاول أن نسقط المنهج الحداثي السيميائي على قصيدة شعبية تناول فيها صاحبها أحمد كرومي مرحلة تاريخية من ثورة الجزائر ضد المستعمر الفرنسي .

و إذ نوظف هذا المنهج لنقف عند المدلول اللغوي ،لا ستخراج مكنونه و الوصول إلى جماله الفني من خلال توليد الدلالات التي تفرزها المعاني الموظفة في هذه القصيدة الشعبية .

و رؤية اللغة من الداخل و محاولة الكشف عما تحمله من جمالية فنية خاصة عند (سبر أغوار النص الادبي ، و ادراك تياراته الخفية التي تتراءى خلف نقاب من المستوى الظاهري للنص) [1].

و حتى نصل إلى هذا المبتغى لابد من تقسيم القصيدة إلى مقاطع تكون بمثابة محاور كبرى. في بداية القصيدة تطرق الشاعر إلى مرحلة 08 ماي 1945 ، حيث كانت في اعتقادي بداية لاندلاع ثورة نوفمبر ، لان العدو لم يكن يدرك أن الضغط يولد الانفجار ،هذه المجزرة دفعت الشعب الجزائري إلى التفكير في لم الشمل ، و مخاطبة العدو بلغة السلاح .قال :

يوم 08 ماي نعطيك الاشارة

في 45 بداو القتال

معركة سطيف راها عبارة

قتلت لنا شحال شلة من الرجال

في هذه المجزرة بدأ الشعب الجزائري يبحث عن ذاته ، وقف وقفة تأمل و تبصر في الواقع ، غير موقفه من المستعمر ،و من هذه المجزرة بدأت تفوح رائحة الثورة المجيدة ، حيث استعمل الشـــــاعر لفظة " إشارة " بالتنكير الموحي بالإبهام قال:

ما عفت ما اعفات هذي النكارة

و الدمعة سايلة على خدي تنهال

في خراطة و قالمة دارت حارة

ما بيدي ما ندير نشكي للجلال .

هذه المجزرة كذبت كل ما كانت تزعمه فرنسا أن الجزائر قطعة منها ، الشاعر يربط بين النسيج اللغوي و ما تحمله العبارات من دلالات ، يأمل الشاعر أن تكون هذه المجزرة نعمة تحرك مشاعر المواطن و تغرس فيه روح المقاومة .

لعل هذه التصرفات البشعة التي قام بها العدو جعلت الشاعر يعيش في قلق و اضطراب نفسي يتجلى من خلال متغيرات صورته الممثلة في العبارات "الدمعة سايلة ، في المدن خراطة و قالمة ، وغيرها من المناطق .

في هذا المقطع يبرز العلاقة الموجودة بين الطرفين ، علاقة المعتدي بالمعتدى عليه ، يتجلى ذلك من خلال توظيفه لفظة القتال للدلالة على وجود طرفين في المعركة .

الأول يملك السلطة المادية و المعنوية من خلال الأفعال : قتلت ، ما عفت ، ما عفات . ..

أما الثاني مجرد منها بدليل : الدمعة سايلة على خدي تنهال ،ما بيدي ما ندير ، دارت حارة ، عبارات توحي بفقدان الوسائل الحربية ، وضعف المعتدي عليه ، خاصة و هو يكرر النفي نمثل لذلك بهذه الخطاطة :

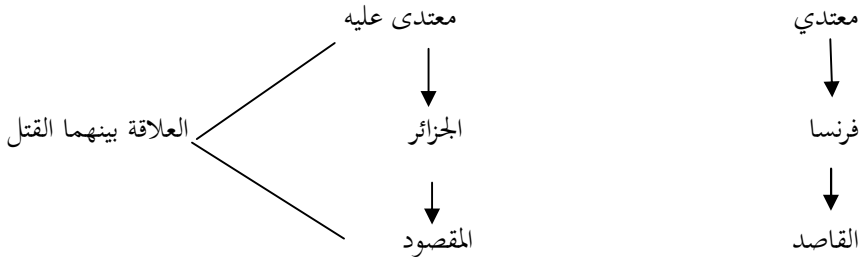

إذ يوظف هذا النفي ليندد بالجريمة الشنعاء ، و يضيف لفظة 'النكارة ' و فيها استخفاف بالعدو و إجحاف في حق من حارب بجنبها في الحرب العالمية ، و في هذا يحدث تشاكلا بين الأفعال :

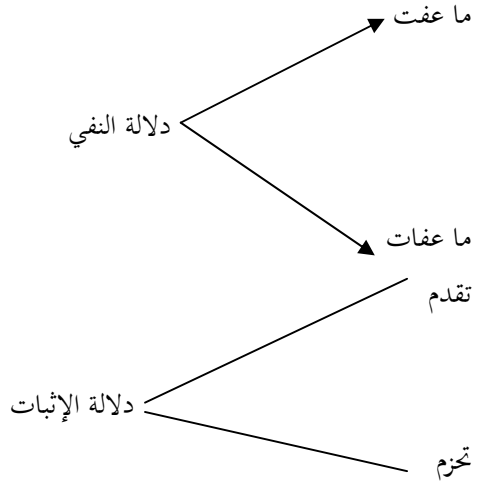

و من ثم تأخذ العلاقة بين الطرفين بعدا دلاليا ، التوجه و الاستعانة بطرف أخر ، صاحب القوة التي لا تقهر ، و بالتالي يصبح القتال عند الجزائري جهادا و يأخذ منحى أخر عند المقصود ، لان الشاعر هو الذي يحسن تلوين الألفاظ و (الشعر يخرق القوانين العادية التركيبية و التداولية و المرجعية و لكنه في نفس الوقت يخلق قوانينه الخاصة به) [2]، وهو ما دفع بالشاعر احمد كرومي إن يغير نظرته حيال المستعمر و يقدم صورة مشرقة للشعب الجزائري.

و هنا يحدث عقد ميثاق ترابطي بينه وبين الشعب المقهور تترتب عنه علاقة تواصل ، وفي هذه الحالة يستثمر مخزونه التخييلي (لتغيير سلوك المتلقي و مداركه و معتقداته ، و لا يتأتى ذلك إلا بكسب ثقته و مودته بواسطة قواعد التخاطب)3 التي يجب عليه الاستعانة بها حتى يصل إلى مبتغياه ، و بالتالي فهو مجبر على توظيف العبارات المناسبة للمقام ، و في هذا المنحى يقول :

تقدم شعبنا و تحزم للقتال

ما قدينا نصبروا للسيطرة

نفناوا على بلادنا زينت لفعال .

و إذ يقدم هذه الصورة ليغير رؤية الشعب اتجاه وطنه فلا ارض تتسع للجزائري ، و لا مكان يأويه إلا وطنه .

لذا يظهر مدلول القتال بصورة اخرى فالشعب استجاب لنداء الجهاد ، بعدما تجرع مرارة الفقر و الحرمان ، و بالتالي يتحول الخطاب إلى الطرف الثاني و القتال يظهر في هذه الخطاطة

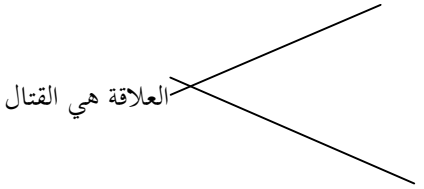

لعل استجابة الشعب لمواجهة العدو تتجلى في عبارة "تحزم للقتال "، و تعلقه بالوطن تظهر في عبارة "نفناوا على بلادنا "،و حتى يغرس روح المواطنة يدعو الشاعر المقاتل إلى اقتحام ساحة الوغى دون خوف ولا وجل،هكذا تظهر القوة التي تمنح الشجاعة ، و الإيمان الذي يعني الولاء للوطن ، لذا قام بتعداد خصال المعتدى عليه باعتباره يملك القوة المعنوية .

صفات المحارب الجزائري:

-إيمانه بالنصر –

حبه للقتال

-ثورته على الوضع

– العزم على الفناء من اجل الوطن .

و تخرج الألفاظ عن مدلولها اللغوي ليأخذ القتال دلالتين متباينتين ، تظهر ضمنيا في هذه الثنائية التي توضحها هذه الخطاطة :

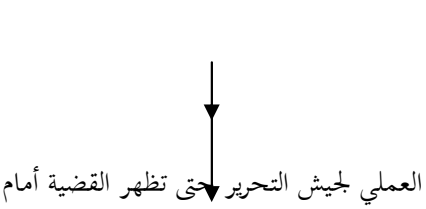

إن جرائم المستعمر تدفع بالشاعر إلى تجديد الفعل العملي لجيش التحرير حتى تظهر القضية أمام العالم :

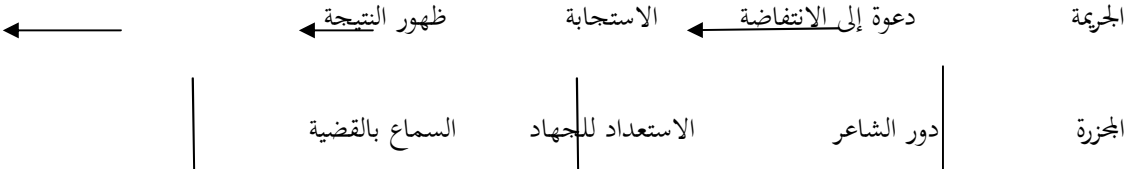

و إذ يوظف الشاعر معنى الجهاد ليمنح قوة معنوية للمحارب الجزائري فهو في كلا الحالتين منتصر ، إذا استشهد مصيره الجنة ، و إذا انتصر عاش في كنف الحرية ، لذا كان القتال من اجل الوطن واجبا ، و التخاذل فيه إهانة و مذلة ، و حلت سنة 54 لتعطي اشارة الانطلاق لهذا الجهاد :

في 54 ناضوا رجال الدبارة

تلقط في شبابها تنظم في الرجال

وتوظيفه لفظة شباب تدل على أن الثورة فجرها رجال في ربيع العمر في حين إن الكبار كانوا سندا قويا لهم ،ثم ينتقل إلى الحديث عن الذين استجابوا لنداء الجهاد :

نبدأ قولي على فراسين الغارة

و الرجال العز يا العارف بالمقال

و اللي ناضوا جاهدوا في الكفارة

تكلوا على الله عانهم رب الجلال .

و تأخذ القصيدة اتجاها آخر ،تتنوع العلاقة بين ذات الشاعر و الأنا الأخر ، نوضحها في هذه الخطاطة :

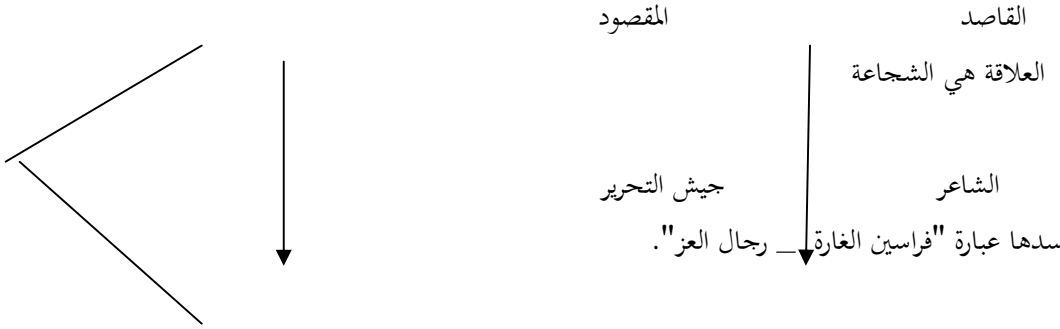

تجسدها عبارة "فراسين الغارة ـــ رجال العز".

هنا تتقاطع الصفات بين القاصد و المقصود، يشتركون في الرجولة ، والجهاد ،التوكل على الله ، في حين تظهر ثنائية التضاد داخل المقطع بين جيش التحرير و الغزاة ، يشتركان في القتال و يختلفان في الهدف نظهر ذلك في هذا الرسم :

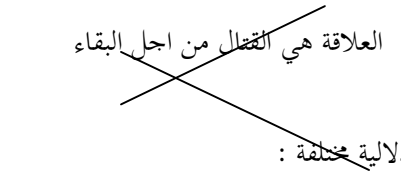

إلا أن هذه العلاقة لها أبعاد دلالية مختلفة :

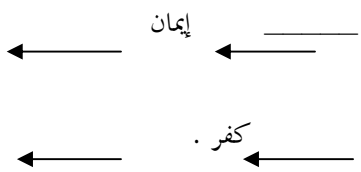

ثنائية العمل :

تأخذ لفظة القتال دلالة متباينة عند كل طرف ، جيش التحرير مصيره النصر او الشهادة ، بينما جيش العدو قد ينتصر في المعركة و قد ينهزم ، و بالتالي نصل إلى (المربع السيميائي باعتباره تأليفا تقابليا لمجموعة من القيم المضمونية)4 تظهر في هذه الخطاطة :

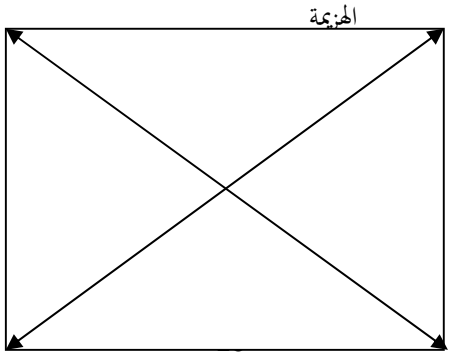

اللاهزيمة اللانصر

إن العلاقة بين هذه العناصر المشكلة بين النفي و الاثبات ، نفي هزيمة الجزائري ، و إثبات انتصاره في النهاية ، هو ما احدث التناقض و التضاد .

و انطلاقا من هذه التضادية (نصر / هزيمة) (إثبات / نفي)توحي بالصراع داخل ساحة المعركة ، و محاولة كل طرف إثبات وجوده ، ومن خلاله يمكن أن نصل إلى النتائج التالية :

جيش التحرير _____ هدف مقدس ثابت

جيش العدو _____ هدف وهمي زائل .

و يتوجه الشاعر إلى المستعمر بفتح الميم ليتحول قيامه بالثورة إلى واجب ، وبالتالي تتحول الهزيمة إلى نصر (يقوم الشاعر في هذه العملية بدور قيادي يتجلى بشكل واضح في حرصه على إقناع الفاعل الجماعي "الناس "و توعيته بضرورة تنفيذ برنامج يرى انه يحقق له وجوده و يكفل له حقه المشروع)5

و يردف قائلا :

في سبع سنين شربوها لمرارة

عرات لوطن من جهد الزلزال

نادى ديغول على دول الكفارة

نوضوا عينوني و راه طوال الحال

حلف الاطلسي جابو نعاره

هذا حرب كبير ما عنده تمثال .

و يأتي هذا المقطع مخالفا لما سبقه ، حيث تظهر نتائج الثورة التحريرية التي اثبت فيها الشعب قوته ، و إيمانه بان الجهاد باب من أبواب الجنة لا يلج هالا من عقد العزم عليه ، و يظهر أيضا ضعف الطرف الثاني الذي استنجد بالحلف الأطلسي و نثبت ذلك في هذه الخطاطة :

جيش التحرير قوة

عساكر العدو ضعف .

وتنعكس العلاقة بين الأطراف و الموضوع ، و هي علاقة اتصال أو انفصال من حال إلى حال و هو ما يسمى في النظرية السيميائية بالتحويل (من حالة الانفصال إلى حالة الاتصال و إما تحول انفصالي أي الانفصال من حالة الاتصال إلى حالة الانفصال)6 محمد مفتاح ،من ثم يحدث التحويل فتظهر نتائج الثورة الجزائرية الممثلة في جيش التحرير الوطني الذي نظهره في هذه الخطاطة :

الحالة (1) التحويل الحالة (2)

جيش التحرير انتصار قوة

جيش العدو انهزام ضعف .

هكذا انتقلت الأوضاع ، و تحولت الهزيمة إلى انتصار و القوة إلى ضعف ، ليحدث الاقتراب و الاغتراب بين القيمة التي كانت وراء طبيعة القيم التي كان يدافع عنها كل طرف ، و كانت سببا في اشتعال فتيل الحرب ، و التي تظهر في هذه الرسمة :

ف م ف م جيش التحرير

ف م ف م جيش العدو .

يظهر بأن الشعب الممثل في جيش التحرير اقترب من القيمة المنشودة ، في حين ابتعد عنها جيش العدو .و عبر الشاعر احمد كرومي عن ذلك في عبارة " شربوها لمرارة " و "عرات لوطان "،الأمر الذي دفع العدو إلى طلب النجدة من الحلف الأطلسي الذي أصبح طرفا مساعدا في تنفيذ حرب الإبادة ، وبذلك وقعت الجزائر بين كتلتين متحالفتين :

جيش العدو الجزائر الحلف الأطلسي.

عبر عنها الشاعر ب:

تجمعت كاملة أولاد الكفارة

و لا غفلة لقاوها في ذي الرجال

و ما تزي لك طنوك و لا طيارة

و خدعت يا فرنسا درت المحال .

و هنا تظهر البنية السطحية المجسدة في عتاد المستعمر ، و إذ يبرز هذه القوة ليشيد ببطولة جيش التحرير، وبقزم من شأن العدو الذي واجه شعب أعزل بأسلحة فتاكة :

تجمع اولاد الكفارة

جيش العدو كلها ترمز الى التقتيـــــل

عتادهم طنوك و طيارة .

في حين يظهر الطرف الثاني بقلة عتاده ، و قوة حلمه في إثبات الوجود :

البطولة

جيش التحرير رمز للـــــــــــــخير .

الحلم

نستنتج من هذين الطرفين إشكالية التناقض في الإشادة و التنديد :

الحرب الدايرة عندك لخسارة

و ضيعت باهرة عساكر في الجيهان

دارت اجتماع عيطوا للدبارة

و الكلام الزين وزعوه على العقال

تخرجي من بلادنا يا حقارة

و بلا طوعك نرفدوا قاع الاستقلال .

لعل هذه الصورة تعكس إشكالية التحول التي عرفتها ساحة الوغى ،كل طرف حاول اثبات وجوده نظهر ذلك في هذه الخطاطة :

قبل بعد

قوة فرنسا ضعف

ضعف_____ الجزائر _____ قوة .

هكذا ينقلب ظهر المجن و تسترجع الجزائر مجدها التليد ، وتفقد فرنسا مكانتها ،و و يتحطم برجها العاجي على أيادي عشقت الحرية ، و تقربت إليها بنفوس طاهرة لا تبالي على اي جنب يطكون مصرعها .

و بالتالي تصبح القصيدة دائرة البناء كانت مجزرة 8ماي 1945 ميلاد الحرية و نهاية لعدو عمر أكثر من قرن من الزمن نظهر ذلك في :

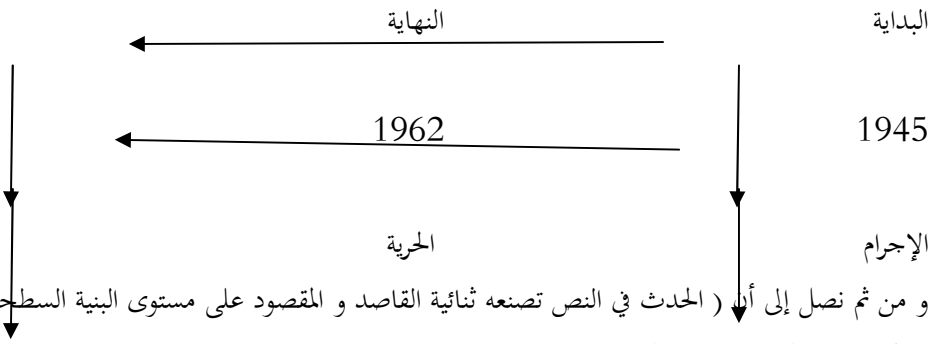

و من ثم نصل إلى أن (الحدث في النص تصنعه ثنائية القاصد و المقصود على مستوى البنية السطحية)7 ، و هو ما يجعل منها حقلين دلاليين مختلفيين :

،

دلالة الإيجاب	دلالة السلب
الاستعداد للحرب	التقتيل الجماعي للجزائريين
الانتفاضة ضد الإجرام	اتساع رقعة المجزرة
الفناء من اجل الوطن	اهانة الشعب
الانتصار	الانهزام .

و يثبت ذلك في قول الشاعر :

و أنتاي ما اتليت فيها تتسارى

ارفد رجليك ذاك حدك في التجال

الكرومي معروف من ذو الشعراء

من عرش ذوي منيع كتاف ام الشمال .

هكذا يختم الشاعر قصيدته بأبيات تتقاطع فيها الأسماء بالأفعال ، في حديثه عن العدو وظف الأفعال منها "تليت ، تتسارى ، ارفد " كلها تصلح للحركة و الاستمرار ، و تعبر عن حالة الاضطرابية التي يعيشها الشاعر ، أما الأسماء استعملها للطرف الثاني الأنا التي تهدف إلى الثبوت و الاستقرار لان (التنوع في الجمل الذي يسود النص عبر صيرورته هو دلالة على فوضى الذات المبدعة ،الفوضى الوجدانية المتمزقة في حركة انفعالية منعكسة في عالم الشاعر الداخلي)8.

هكذا يصبح المعتدي راحلا "ما تليت فيها تتسارى " ، و المعتدى عليه باقيا "كتاف ام الشمال " .

ومن ثم فتحت الثورة الجزائرية الشهية للمبدعين ، دونوا صمود الشعب الجزائري في وجه القوة التي لا تقهر كما كانت تزعم فرنسا لنفسها .

مراجع البحث مع التهميش :

*الشاعر احمد كرومي من الشعراء الشعبيين ولد عام 1918 بالعبادلة وافته المنية يوم 2002/03/09 ،خلف وراءه شعرا محفوظا في الصدور و السطور من أغراض مختلفة .

1_عدنان حسين بن قاسم :الاتجاه الأسلوبي في نفد الشعر العربي ،مؤسسة علوم القرآن الشارقة ص 86

2_ محمد مفتاح :تحليل الخطاب الشعري المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط3 ص 68 3_محمد الداهي : سيميائية الظلام الروائي شركة النشر و التوزيع المدارس الدار البيضاء ط1 2006 ص 150

4_سعيد بن كراد مدخل إلى السيميائيات السردية دار تيفل للطباعة و النشر مراكش ط1 ص 34

5_ قراءات و دراسات نقدية في أدب عبد الحميد بن هدوقة مديرية الثقافة لولاية برج بو عريريج ص 9

6_محمد مفتاح : في سيمياء الشعر القديم ، دراسة نظرية و تطبيقية مطبعة النجاح الجديدة 1989 الدار البيضاء ص 109

7_ عبد القادر فيدوح دلائلية النص الأدبي ص 44

8_عبد القادر فيدوح م ن ص 46